

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذ نظرنا إلى تكوينه الذى جعله مستعد لتلك الأعمال مطلقاً بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم أن تقترن بالعمل الذى تستطيعه، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازاً بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده^(١).

وإذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز، أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه - قبل السماع من أعماله - توقع فى الربوع^(٢) أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد^(٣)، وأنه جدير بالهيبة والإعظام، خليق أن يحسب له كل حساب كان مهيباً رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه، وأولها جهة عمر.

أذن النبى يوماً لجارية سوداء، أن تفى بنذرها "لتضربن بدفها فرحا أن رده الله سالماً" فأذن عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه.

ودخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب، والصحابة مجتمعون.

(١) نسيج وحده: لا نظير له.

(٢) الربوع: العقل أو القلب.

(٣) سواد الناس: عوامهم.

فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفنها تخفيه،
والنبي عليه السلام يقول: "إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!" .

وروت السيدة عائشة رضی الله عنها أنها طبخت له عليه السلام
حريرة^(١) ودعت سودة أن تأكل منها فأبت، فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن
وجهها، فلم تأكل، فوضع يدها في الحريرة ولطختها بها. وضحك النبي
عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: لطخي أنت وجهها.
ففعلت .

ومر عمر فناداه النبي: يا عبدالله! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما:
قوماً فاغسلا وجهيكما!

قالت السيدة عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه .

ومن تلك الهيبة أنها كانت رى الله عنها تتحفظ في زيادة قبره بعد
موته، وحكت ذلك فقالت: "ما زلت أضع خمارى وأنفضل^(٢) في ثيابى
وأقول: إنما زوجى وأبى، حتى دفن عمر بن الخطاب، فلم أزل متحفظة في
ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً فتفضلت بعد" .

وأن من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضى عنها
واغتباطاً بأثرها في نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة
أهل البغى والبهتان .

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذى يجهلونهُ . . وتلك علامة
على أن هيئته كانت قوة نفس تملأ الأفتدة أن تملأ الأنظار. فرمما اجتراً عليه
من لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر
والثياب. أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعه على المفاجأة روعة لا

(١) الحريرة هنا: دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء.

(٢) التفضل: ليس الفضال وهو الثوب يلبس فى البيت للخدمة أو النوم.

تذهبها الألفة وطول المعاشرة، ومن ذلك أنه كان تمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت، فلم يبق منهم أحداً إلا وحيل ركبته ساقطاً!

وتنحج عمر والحجام يقص له شعره فذهل الحجام عن نفسه وكا أن يغشى عليه، فأمر له بأربعين ردهماً.

فهى هية من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعاً يهول من يراه، ولا يذهب الخوف منه إلا الشقة بعدله وتقواه.

كان طويلاً بائن الطول يرى ماشياً كأنه راكب، جسمًا صلبًا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب.

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتيار بين بنى الإسلام، وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الحلقة كما تتصل الأخلاق والأعمال.

فالعالم الإيطالى "لومبروزو" ومدرسته التى تتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها. . وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومبايئته للوترة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكون العبقري طويلاً بأن الطول، أو قصيراً بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ، فيكون من تفرط سورتته^(١) كما

(١) سورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تازة في الزناكة^(١) والفراسة، وتارة في النظر على البعد، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله.

ومهما يكن من الشك في استقصاء هذه العلاقات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهي بلا ريب صادقة في حالات، مقارنة في حالات، غير أهل في كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفي عمر بن الخطاب هذه العلامات كثير.

كما كان تقدم طويلاً يمشى كأنه راكب، وكان أعسر^(٢) يسراً يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكما كان وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟ فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم.

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله، وآثر البكاء في صفحتي وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومن فرط حسه وتوفز شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشموحات التي لا يسهل التمييز بينه. سقاه غلامه ذات يوم لبناً فأنكره. فسأله: ويحدث! من أين هذا اللبن؟ قال الغلام أن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله.

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا جميعاً أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلاً يدعون بين لبن الناقة غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيما في المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

(١) الزناكة والفراسة: أن يظن الشخص فيصيب.

(٢) الأعسر اليسر: الذي يعمل بكلتا يديه.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن " من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه " . . . وتروى له في أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لاشك فيها، وهى أنه أشهر بالفراسة وحب التفرس بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالساً فمر به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية. . . فكان كذلك.

وأنه أبصر أعرابياً نازلاً من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده، قد نظم فيه شعراً لوشاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت؟ فقال: من أعلى الجبل. فسأله: وما صنعت فيه؟ قال: أودعته وديعة لى. قال: وما وديعتك؟ قال: بنى لى هلك فدفتته قال: فأسمعنا مرثيتك فيه. فقال: وما يدريك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما تفوهت بذلك، وإنما حدثت به نفسى، ثم بعد أبياتاً ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك له فى حكمه كان ذا وفى قدره
قدر موتا على العباد فما يقدر خلق يزيد فى عمره
فيكى عمر حتى بل لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابى.

وكان عمر بن وهب الجمحي وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان: والله ما إن فى العيش بعدهم خير. فوافق عمر وهو كالمعتذر من تخلفه عن الثأر: أما والله لو لا دين على ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقال صفوان يحرضه: على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا، لا يسغى شىء ويعجز عنهم.

فوقع كلامه من نفس عمير، فأسر إليه بعزمه على الغدر بالنبي وشحذ سيفه وسمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فما نظر عمر إليه متوحشاً بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه:
 هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا الشر، وهو الذى حرش بيننا
 وحزرتنا^(١) للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبي فأخبره خبره وعاد إلى عمير
 فأخذ سيفه فى عنقه فلبيه^(٢) بها، وقال لرجال من الأنصار: أدخلوا على
 رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير
 مأمون، ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحالة سيفه فى عنقه
 قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير!

وجعل رسول الله يسأل عميراً وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار
 فبأحسره، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار
 بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية
 فى حاشية من حواشيها... إذ ما هى العبقرية لبابها كائناً ما كان عمل
 المتصف بها؟ ما هى الحكمة العبقرية؟ ما هو الفن العبقرى؟ ما هو دهاء
 السياسة فى الدهاء العبقرين؟
 من هو:

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن
 واستخراج المعانى التى تدق عن الأبواب... فاتصالها بالفراسة وشبهاتها أمر
 لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتجيه.

والذى يعيننا من الفراسة وشبهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان
 الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار،

(١) حزر الشيء: قدره بالتخمين.

(٢) لبيه: جمع ثيابه عند نحره ثم جره.

وهي التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو "التلباى" كما يسميه النفسانيون المعاصرون. ولكل أولئك شواهد شتى مما روى عن عمر في جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك قال قريب. وسأله مرة أخرى: ابن من؟ فقال ابن ظفر! فتفاءل وقال: ظفر قريب إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن معيد أن عمر سأل رجلاً: ما اسمك؟ قال: جمره! فسأله: ابن من؟ قال: ابن شهاب. فسأله: ممن؟ قال من الحرقة، وعاد يسأله: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، وهكذا في أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه، والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقد يكون التأليف ظاهراً في هذه الصفة ولكنها مع تأليفه لا تخلو من الدلالة على اشتهاه عمر باستكناه الألفاظ في معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا فأخر ما روى عنه من أخبارها أنه رأى فيل مقلته كأن ديكا نقره نقرتين فقال: يسوق الله إلى الشهادة ويقتلني أعجمي، فإن الديك في الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيراً في قصة سارية المشهورة، وهي مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباى Telepathy أو الشعور البعيد.

كان رضى الله عنه بخطب بالمدينة خطبة الجمعة فالتفت من الخطبة نادى: يا سارية: حصن! الجبل.. الجبل..! ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله على رضى الله عنه: ما هذا الذى ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم.. أنا وكل من فى المسجد.

فقال وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل. فلإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج منى هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حتى جاوزوا الجبل صوتًا يشبه صوت عمر يقول: يا سارية حصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادا إلى العقل أو إلى التجربة الشائعة. فإن العقل لا يمنعها. والعلماء فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها، بل منهم من مارسوا "التلباى" وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين.

إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذى درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثرها من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء.